في الطريق الى برك سليمان

قصة بقلم سميرة عزام

كان يحس انها معركة غير متكافئة ، فرصاصته رغم حقدها تكاد لا تفعل اكثر من انها تستثير زخة جديدة من دمارهم ، ولكن هذه الرصاصات القليلة كانت كافية لتبعث فيه الشجاعة وتنفي من وجدانه اي مبرر منطقي يقربه بان يتلبس حالة من الهروبية يبدو معها اي شيء تافها امام حياته وحياة زوجه وطفله .

كانت ليلة قمر ، سخية الضوء تسمح لازهار شجر اللوز والمشمش في حديقته وفيما وراء حديقته من بساتين ان تبدو كنجيمات صغيرة بيضاء تجعل لياليه شعرا كلها ، فكأن هذه النجيمات عيون بريئة مفتحة على مأساة تكاد لا تدرك منها شيئا .

وعبأ ماسورة البندقية بالرصاصات الاخيرة ورفع صوته ليبلغ اذن الزوجة التي وقفت غير بعيد منه تقوي فيه دواعي الصمود وتحسسه بمسئولية حياتها وحياة ولدهما وحياة هذه القرية المشلوحة على حضن الوادي .

ـ سعاد اخشى اننا انتهينا ، فالله والحظ ليسا معنا ، هذه رصاصاتي الاخيرة ، ولقد خمد رصاص القرية واحس اليهود باننا نكابر ، سيبلغوننا في اقل من ساعة ، وسأكون انا وانت والصغير ـ وبيتنا على طرف القرية ـ وليمة لنصر حقير .

وقطعت صوته قذائف توالت من مدفع مهذار .

والقى ببندقيته ، فهي ـ بعد ان فرغ رصاصها ـ ليست اكثر من خشبة او لعبة يلهو بها طفل ..

وكان يرفض ان يصدق ان دوره قد انتهى ، فقد اتاه مع الغروب من يؤكد له ان ثمة صناديق في الطريق الى (بتير) . اترى تعليماته الى الشباب لم تغن شيئا ؟ اما اتفق واياهم ان يحملوا له الرشاشات ان جاءت من القدس لينصبوها وراء المتاريس التي اقيمت على سطح بيته ؟

ولكن لو جاءت ، اما تكون ردود القرية على صخب اليهود ابلغ واقوى نفسا ؟

واحس بعجزه حين اطلق الرصاصة الاخيرة ، وراح يدور على السطح واظافره تكاد تنفرز في كفيه ، وقد شعر ان ليس اسخف من منطق الحق امام الرصاص ..

وتطلع الى زوجته ، كانت تبكي . فكأن البندقية الفارغة حسستها بان بطولة حسن ليست الا تهريجا صبيانيا ، وان طوابير الشباب التي تعب على تدريبها هي دمى يحركها طفل عابث .

لم يكن يملك ان يقدم لزوجته شيئا ، لونا من ضمانة تثبت في نفسها شيئا من الطمأنينة .

واحس بان بندقيته الملقاة ، خشبته الفارغة ، هي المسئولة عن رجولته المهينة ، وانه بدون رصاصها سيموت في بيته ميتة فأر ..

وكانت زوجته تبكي ، واحنقه بكاؤها . راعه ان تفقد ايمانها به هكذا بسرعة ، ولما نظر اليها حانقا لم تقل له اكثر من كلمتين : «وطفلنا يا حسن؟»

اجل ! وطفله ؟ هذا سؤال ميت الرجاء امام المتاريس التي تطلب الرشاشات والبندقية التافهة الفارغة .

وظل يدور وفي خياله صورة شرذمة تحتفل بنصر حقير .

وتطلع الى زوجته .

واحد من اثنين ، اما ان يموتا وثالثهما « عمر » ، او ينطلقا الى « برك سليمان » فيترك الطفل وامه هناك ويعود هو ليفعل شيئا .

ـ تعالي .

وشدها من يدها وهبط السلم معا ، ومضى هو الى سرير عمر ، فحمله وترك زوجته تلملم بعض حاجيات ، ثم انطلقا يقطعان الحقول التي تفصل بين بيتهما واول بيت في القرية .

كانت في يد زوجته بقجة من ثياب عمر ، اما هو فاكتفى بالصغير يشده الى صدره برفق ، ويحاول ان يمشي به باتزان ، فلا يفتح الصغير عينيه على ليلة رعب . كان ازيز الرصاص قد سكت . لعل اليهود ادركوا عبث الطلقات تضيع هباء مع القرية العزلاء ، فجلسوا يستريحون او يرسمون الخطة لزحف يسهله لهم انهم ينحدرون من جبل ، وان (بتير) القرية ترتمي ضعيفة في الوادي .

والتفت حسن الى بيته ، كان ما يزال مشدودا بكرامة ، جدرانه البيضاء تشرب فضة القمر ويغسله عطر زهر اللوز بسخاء ربيعي .

ورأى زوجته تلتفت مثله ، ثم التقت اعينهما ، وفي لحظة واحدة استعرضا تاريخا من عواطفهما ، اجل هوذا بيتهما ، عشهما الابيض ، كل حجر فيه يحكي حكاية من لون .

وبكت زوجته .

اما هو فحاول ان يتماسك وهو يستمد شجاعة من حرارة الجسم الطريء الذي يحمله .

وفي تلك اللحظة لمع الرصاص من جديد .

وصاح بزوجته ان تنبطح ، وانحنى هو ايضا وظلا لحظات حتى سكت اليهود . وقاما والتفت حسن يحاول ان يتبين الناحية التي انصب منها الرصاص . كان يبدو قريبا ، واذ بطلقة جديدة تنبعث .

وصاح بزوجته : « اركضي ».

وركضا معا . ظلا يركضان ربع ساعة حتى احس بان زوجته قد انهكت فاتأد ، ورفع يده اليسرى التي احس بها تتصلب ليريحها فاذا بشيء حار يغسلها .

هل اصيبت ؟

وقلبها فلم يبد فيها اثر رصاصة ، كما لم يحس فيها الما ، فكاد يصيح :

« اهو عمر »؟..

وخشي ان يبدر منه انفعال ما ، فركض وخلفها وراءه ليتبين مصدر الدم .

ولما توارى خلف شجرة حرك الصغير فاذا به بلا حياة .

وعض على شفتيه حتى ادماهما .

ماذا يفعل ؟. هل يدع الجسم الصغير ينام مستريحا تحت شجرة كريمة؟ هل يمضي يفتش عن عدو ينهشه باسنانه واظفاره ؟ هل .. هل .. وسمع زوجته تنادي .

كان صوتها حزينا ، صوت انين تسلب طمأنينة قلبها .

ـ « انا هنا » ، وتماسك ، ظل يحمل الصغير ، فلو علمت الام لارتمت وجابهته بمأساة اخرى .

وانتظرها حتى اقتربت ، ثم اعطاها ظهره وسار . كان يريد ان يصل باسرع وقت ، فلم يبال حتى بصوت الزوجة تقول بصوت متقطع :

ـ اذا تعبت منحمل الصغير ، فدعني اريحك قليلا .

وكان يبكي فلم يجب .

ساعة ، ساعتان ، ثلاث ، اربع في الطريق الى « برك سليمان »

وكان يلتقي بشراذم النازحين فلا يحاكيهم بل يسلك طريقا بعيدا .

ـ حسن ! لقد برد هواء الفجر ، فخذ هذه البطانية ولف بها عمر .

ويأخذ البطانية يلف بها الجسم الذي برد فعلا .

ـ حسن ، دعني احمله.

ـ امشي . انني اقوى منك ..

اقوى ؟! ما اتفه هذه الكلمة التي لم تفلح في ان تحمي ابنه ، وهو بين يديه .. اقوى .. ان فأرا مسلحا اقوى منه الف مرة .

وكان لا بد من ان يريح الطفل ، فقد انحدر القمر واحمرت الرانه فكأنه شمس تشرق من الغرب ، وتوشحت السماء باضواء فجرية مسحورة وبدت له اسطحة الدور في برك سليمان مسطحة مربعة .

وتطلع ثم اختار ان ينعطف صوب احد بساتين اللوز ، وظل طويلا يجيل عينيه ليختار شجرة سخية قصدها ، واراح الطفل،ثمعالجاحد الغصون فكسره ، وراح ينبش به الارض بحركة دائرية ما لبثت ان اتسعت للجدث الصغير ، ولما غطاه بالتراب حفنة حفنة وقف وهز الشجرة ففرشت له الارض بنجيماتها البيضاء ..

ثم ركع .. ولم يقرأ صلاة غير دموعه .. واختلطت بالبكاء كلمات تقول

ـ « اغفر لي يا بني ، انني تركتك تموت بين ذراعي .. لانتهي بك الى حفرة ان اتسعت لكفلن تسع حقدي .. اتراك تغفر لي ؟ »

وظل جامدا ولم تتحرك قدماه الا حين بلغه صوتزوجتهتنادي من بعيد.

بغداد — سميرة عزام

في المكتبات

فرنسواز ساغان

القصصية الفرنسية الشابة

في

مرحبا ايها الحزن

(الطبعة الثانية)

و

ابتسامة ما ...

النص الكامل لاول مرة باللغة العربية

من كتب المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر ـ ص.ب. ٥٣١٥ ـ بيروت